الفصل التاسع

الإمبراطور الصغير

اتخذ الإمبراطور الجديد اسم ماركوس اوريليوس أنطونيوس. وقد ضرب هذا الاسم على العملة والمنقوشات. ولكن لم تعرف الأجيال القادمة هذا الاسم. إذ بعد مضي قرابة مئة عام على وفاة هذا الإمبراطور عمد أحد مؤلفي تاريخ أغسطس إلى البحث عن الأسباب التي جعلت السياسة المعاصرة تحط من قدر تلك الأسرة، فاخترع لهذا الإمبراطور اسم هيليوجابالايس Hiliogabalus وهذا الاسم عبارة عن تشويه متعمد ودمج لكلمة سريانية مع كلمة يونانية. فقد وضعت كلمة هيليوس اليونانية التي تعني الشمس مع اسم المعبد السرياني الذي خرج منه الإمبراطور هو معبد ايلاجابالوس، وذلك بقصد التهكم على الاسم بتحويله إلى اسم يوناني. والحقيقة أن الإمبراطور الجديد لم يتخذ اسم الإله أثناء حياته، ولكن هذا اللقب التصق به، وسُجل اسم الإمبراطور هيليوجا بالوس في التاريخ الروماني.

دخل هذا الإمبراطور أنطاكية، وهو في الرابعة عشرة من العمر، دخول الفاتحين ولكنه مات وهو في الثامنة عشرة من العمر. بدأ حياته كإمبراطور بعمل من أعمال التسامح والسمو، فقد أوقف الجنود عن نهب المدينة وعن القتل والاغتصاب، وكانت هذه الأعمال من الامتيازات المعروفة للفاتحين في تلك الأزمنة. وتعويضاً عن ذلك دفع لهم مبلغاً لا بأس به من النقود. ساهمت مدينة أنطاكية في دفع قسم من هذا المبلغ، ومع ذلك فقد رضي الناس بذلك إذ كانوا يتوقعون مصيراً أسوأ من هذا بكثير.

حالما انتشرت الأنباء تعلن عن انهزام وموت ماكرينوس سارع ولاة الأقاليم إلى إرسال المبعوثين إلى أنطاكية لإعلان ولائهم للإمبراطور الجديد ودعمه وتأييده. وأما الإمبراطور فقد أرسل بدوره رسالة إلى مجلس الشيوخ في روما يعلن ارتقاءه إلى السلطة ويطلب الولاء والطاعة ولإحباط ما يمكن أن يحدث لديهم من معارضة بالنسبة لعمره، ذَكَّرَ المجلس أنهم قد سمحوا لماكرينوس أن يطلق على ابنه البالغ تسع سنوات اللقب الإمبراطوري، فإذا كان ابن مغتصب العرش استطاع استلام هذا اللقب في عمر مبكر كهذا، فكيف يمكن إنكار هذا اللقب على وريث الأنطونيين والذي ينحدر من ذلك الخط الطويل من الأباطرة العظام! ولكن ادعاءه كان يرتكز على أسس فيها نظر، وهي ذلك الافتراض الذي ينقصه البرهان أن كاراكلا والده. ولكن ذلك الإدعاء كان يؤيده

الرأي العام في الإمبراطورية وقسم كبير من الجيش، ولم يكن هنالك أي شخص في المجلس لديه الجرأة الكافية للرفض. وهكذا أرسل له الجواب بالاعتراف به إمبراطوراً، وقد ابتلع المجلس تلك الإهانة وهي إطلاق الإمبراطور على نفسه هذا اللقب قبل منحه إياه من قبل المجلس، وبالوقت نفسه أُزيلت عن اسمه وصمة العار التي وصمه به ماكرينوس وهي لقب عدو الشعب، وحولت الوصمة إلى ماكرينوس نفسه بدلاً من ذلك.

لم يستطع الإمبراطور الجديد ترك الشرق حتى استتبَّ له الحكم. فتحرك البلاط الإمبراطوري من أنطاكية إلى نيكوميديا ليكون أقرب إلى روما. عمد هيليوجابالوس إلى تسريح قسم من الجيش وإرسال أفراده إلى أوطانهم وبيوتهم إذ نصحه مستشاروه ألا يكرر غلطة ماكرينوس بإبقاء قسم كبير من الجيش في الثكنات دون عمل، فلم يكن هنالك من خطر على الحدود. فالإمبراطورية الساسانية كان قد حل فيها الانقسام والتدهور حالما تقدم قائد المتمردين والمسمى ارتزركسيس لرفع شأن الدولة وإرجاعها إلى سابق عهدها من القوة والانسجام، وللانتقام من الهزيمة التي حلت بالعرش على يد الاسكندر المكدوني، وهكذا فقد رأى الملكان أرطبان وفولوجاسيس عدواً داخلياً جديداً يهددهما ويسعى لتقويض سلطتهما معاً.

أصبحت حكومة هيليوجابالوس بعيدة عن الأخطار الخارجية. وأصبحت جهودها منحصرة في نيكوميديا بإرجاع أنظارهم، وإصلاح الأضرار التي نجمت عن الحوادث السابقة مع القضاء على آخر جيوب المقاومة.

وقد ساد الاطمئنان في الإمبراطورية عندما أعلن الإمبراطور أنه لن يعاقب أو يحاسب أي شخص أو أي مجتمع لقاء مساعدته لماكرينوس في الماضي. أما الذين يصرون على إذكاء نار الفتنة والعداوة للإمبراطور فسوف يحاسبون ويحاكمون بتهمة إذكاء الفتن. حافظ الإمبراطور على وعده بالعفو، ولكن الموظفين في المراكز الحساسة ذات المسؤولية، والذين أظهروا حماساً في تأييد ماكرينوس استُبدلوا بموظفين جدد. ولكن بعض الذين خسروا وظائفهم بدؤوا يعبرون عن غضبهم بالمكائد والمؤامرات. فقد حصلت محاولة وأُجْهِضَتْ لإحداث تمرد في الأسطول في البوسفور، ومحاولة أخرى لإثارة الجنود الجرمان أثناء رجوعهم إلى بلادهم بعد تسريحهم. وأما أعضاء مجلس الشيوخ الذين كان يُشَكُّ في أمرهم فقد استدعوا إلى نيكوميديا دون إعلامهم عن سبب الاستدعاء، وعندما طال غيابهم وسأل مجلس الشيوخ عنهم أتى الجواب أنه لا حاجة للبحث عن قرائن وشهادات تدينهم لأنهم قد أصبحوا أمواتاً.

كانت الروح المرشدة وراء الحكومة هي ماسيا. وكانت قاسية القلب ولكنها لم تكن محبة للانتقام، وتفضل الوصول إلى أغراضها بالطرائق الدبلوماسية، وعند اللزوم لم تكن تتورع عن إيقاع الضربات الحاسمة، فقد كانت تعامل مجلس الشيوخ الروماني بازدراء سوري. وكان مستشارها الأول هو جانيس Gannys

ويعود له الفضل في القضاء على جيوب المقاومة. وقد كان هذا بعكس كومازون الذي عُيِّنَ عريفاً للحرس البريتوري واتهم باهتمامه بالانتقام الشخصي القديم. خدم جانيس الأسرة الجديدة الكهنوتية بإخلاص، حيث تربى في كنف تلك الأسرة في حمص. وكان ولاؤه ممزوجاً بحبه وولهه بسهيمة التي قبلته كعشيق لها، ووعدت الآن أن تصبح زوجته. واتُفِقَ على إعطائه لقب القيصر بعد الزواج أي نائب الإمبراطور وولي عهده، مع أن هذا الرجل كان في أواخر عمره والإمبراطور لا يزال طفلاً.

علم الإمبراطور بخطة زواج جانيس من سهيمة ووافق عليها، ولكنها سببت بعض الغربة بين الرجلين. فالحوادث الأخيرة سببت تغيراً في أخلاق الإمبراطور الجديد، من الحملات الليلية والتوجه إلى معسكرات الجيش والمناداة به إمبراطوراً من قبل الجنود ومغامراته الحربية في ميدان المعركة خارج أنطاكية. إذ بعد كل هذه التجارب رفض الرجوع إلى وضعه الأصلي كتلميذ يتلقى دروسه من أساتذته. فاعتبر نفسه راشداً وزاد غضبه عندما وجد أن جانيس Gannys كان يصر على تأكيد سلطته كمعلم، وبعد ذلك كزوج الأم (باعتباره سوف يتزوج من سهيمة أم الإمبراطور) ولكن لم يحدث بينهما أي نزاع بالنسبة لشؤون الدولة فقد اتخذت ماسيا لقب الأوغسطا (وكذلك اتخذت سهيمة اللقب نفسه) ولكن دون سلطة فعلية. وقد اقتنع الإمبراطور الجديد بترك كل الشؤون السياسة تحت إشراف ماسيا وكان الخلاف الواقع بين الإمبراطور من جهة وبين ماسيا وجانيس من جهة أخرى هو خلاف حول الشؤون الدينية، فقد كان الإمبراطور يعتقد بضرورة العمل لإظهار مجد إله حمص العظيم.

وأصر على الظهور بملابس رئيس الكهنة أمام الجمهور أي رئيس كهنة ايلاجابيل، ولكن حتى نيكوميديا المعتادة على المذاهب والأديان الغريبة استهجنت منظر الإمبراطور وهو يسير في الشوارع مزيناً بالعقود والأساور، ومتوجاً بلباس رأس ذهبي، تصحبه نغمات النايات وقرع الطبول. وقد سبب سلوكه هذا الشعور بالحرج عند إقامة حفلة تنصيبه قنصلاً لملء الوظيفة الشاغرة بعد موت ماكرينوس. كان الاحتفال ذا أهمية كبرى بالنسبة لماسيا أرادت به إعادة هيبة وكرامة الأسرة. وتعمدت عدم استشارة مجلس الشيوخ في روما حول تلك القضية. وقد شعرت بإهانة كرامتها عندما رفض حفيدها الإمبراطور ارتداء الرداء الإمبراطوري، ولبس الملابس الشرقية بدلاً من ذلك، إن حبه للملابس الفاخرة يؤكد لنا أوجه الشبه بينه وبين كاراكلا ويثبت أبوة كاراكلا لذلك الإمبراطور الطفل.

لقد تنبأت ماسيا التي كانت على علم بالعادات الرومانية بالانطباع الذي سوف يتركه الإمبراطور لدى أهالي روما، ما لم يغير هذا من سلوكه ويصلح أحواله، وقد حاولت هي وجانيس إقناعه أنه لا يستطيع أن يسلك في روما السلوك نفسه الذي سلكه في نيكوميديان، ولكنه أصبح في سن يصعب إقناعه بتغيير

عاداته وزادت التقاليد الدينية في عناده، وقد كان يكره الخداع والاختفاء تحت مظهر كاذب. وعندما حاولت جدته وأستاذه إقناعه أن يتصرف بلباقة لإقناع الرومان بقبوله إمبراطوراً، أرسل صورة له إلى مجلس الشيوخ تمثله لابساً الأردية الكهنوتية لوضعها في المجلس فوق مقعد الإمبراطور حتى يعلم أعضاء مجلس الشيوخ هوية الإمبراطور الجديد. ولم تستطع ماسيا منعه فقد كانت تخشى حدوث وحشة بينها وبينه تمنعها من حكم الإمبراطورية باسمه.

ومع ذلك فقد احتدم الخصام بين الإمبراطور وجدته ومعلمه حول هذه القضية، وقد عمد معمله إلى توبيخه. وأما الإمبراطور فقد أظهر التحدي وفجأة فقد الولد أعصابه وضرب جانيس على وجهه بقبضة يده، فتألم جانيس من تلك المفاجأة واستل سيفه، وعندما رأى الحرس ذلك ظنوا أنه يقصد قتل الإمبراطور فهجموا عليه وطعنوه طعنات أودت بحياته.

وهكذا حرمت ماسيا من مستشار أمين وعاقل وحرمت سهيمة من حبيبها وزوج المستقبل. ولا يعرف كيف كان رد فعل الإمبراطور، ولكن هذا الحادث لم يؤثر في علاقاته مع أمه، فقد كانت هذه تختلف عن جميع أفراد الأسرة. إذ كانت تهتم بمسراتها أكثر من السياسة، وكانت مخلصة لابنها تضع مصالحه قبل مصالحها.

انتهت الأعمال التمهيدية قبل حلول الشتاء، ولكن الإمبراطور أصيب بالمرض وتأجلت رحلته إلى روما، ولم يستطع السفر إلا بعد حلول الصيف، ووصل البلاط الإمبراطوري إلى روما في تموز، وكان أثمن شيء في أمتعة الإمبراطور الحجر الأسود النيزكي الذي يمثل معبد ايلاجابال Elagabal في حمص، فقد أصر الإمبراطور على أخذ ذلك الحجر معه بعد موافقة ماسيا مع الامتعاض الشديد إرضاء للإمبراطور، فقد كانت روما مملوءة بالقبور والتماثيل الشرقية والمكرسة للآلهة الأجنبية وإن جلب هذا الحجر لن يؤثر شيئاً، وقد كان الإمبراطور ينوي وضع ذلك الحجر في البانثيون في مرتبة أعلى من مرتبة تماثيل جوبيتر الذي كان الجميع في روما يحترمونه ويعبدونه. ولكن الإمبراطور بنفسه ومع الرجال والنساء رقص حول ذلك الحجر ترافقه الطبول والصنوج وكانت ملابس الإمبراطور الفاخرة المكلفة والنقود التي وزعها كافية لإرضاء أهالي روما.

هال أعضاء مجلس الشيوخ ما رأوا فمع أن الصورة التي أرسلها الإمبراطور كانت إنذاراً عما سيحدث إلا أنها كانت أول الغيث. فقد كان الصف الأول من المقاعد في الاحتفال محجوزاً لأعضاء مجلس الشيوخ وكان على كل شيخ الحضور ولم يُقْبَل عذر من أحد، والأنكى أنه طلب من الشيوخ المرموقين ذوي المراتب العالية الاشتراك في الطقوس شخصياً وحمل طاسات التوابل وأمعاء الحيوانات التي ذبحت كقرابين على رؤوسهم، وأن يلبسوا أردية تشبه رداء الكاهن الأعظم في حمص. وقد اعتقد الإمبراطور أنه بعمله هذا يجلب

الشرف لأعضاء مجلس الشيوخ ولكنهم شعروا وكذلك الجمهور حولهم أن الإمبراطور قد جعل منهم مادة للهزء والسخرية فلا عجب إذاً أن ديو وهو الناطق برأي مجلس الشيوخ اعتبر حكم هذا الإمبراطور حكماً سبب الحقد للجميع، ولكن ليس معنى هذا أن الإمبراطورية قد أعلنت شجب ورفض ذلك الحكم، فالحدود كانت تتمتع بالسلام، والجيش راض بحكم الإمبراطور الذي هو ابن كاراكلا، وكانوا يضحكون عند سماع تلك القصص دون تحدٍ للإمبراطور، وظلت الحياة المدنية في الولايات تسير كالمعتاد، وقد ساعد إعلان العفو على إرجاع الموظفين الأكفاء إلى العمل في الدولة، وكانت ماسيا مثل أختها جوليا بارعة في حفظ متانة اقتصاد الدولة، وكان المثل الذي ضربته أختها مساعداً لتسهيل أعمالها، بعد أن أصبحت روما معتادة على حكم الإناث ذلك الحكم اللين الناعم.

عملت ماسيا على استدرار رضا مجلس الشيوخ بترتيب مشروع زواج لحفيدها الإمبراطور من إحدى فتيات الطبقة الأرستقراطية تدعى كورنيليا بولا Comelia Paula. وقد احتُفِلَ بالزواج بشكل رائع وبأسلوب روماني صميم، وكان العريس يرتدي الملابس الرومانية والرداء الأرجواني المعتاد. وقد تلا تلك الاحتفالات في الملعب المدرج مباريات ومجالدات وذبح للحيوانات المفترسة، ووليمة للجنود ووليمة للعامة، واستلمت كورنيليا لقب أوغسطا، وكان الإمبراطور في أفضل مزاج وسرور، وكان يفاخر ويباهي بأنه سوف ينجب وريثاً، وكان قد بلغ الخامسة عشرة من العمر، وأصبح قادراً على تنفيذ واجبات الزواج. ولكن روما كانت تنتظر عبثاً أن تحمل الزوجة بأي طفل. وأخيراً أعلن الإمبراطور أن هنالك عيباً في جسم زوجته قد سبب عدم رضاه ولذلك فقد أُلغي الزواج الذي لم يدم أكثر من عام ولم تكشف طبيعة ذلك العيب.

ولكن أخطر نكاته كانت اختياره عروساً تليق بالإله ايلاجابال الذي جلب الحجر الأسود الذي يمثله إلى روما. وقال إنه لا يجوز أن يظل ذلك الإله السوري الذي حضر إلى روما دون قرينة فاختار له الآلهة باللايس Pallas ويعرف تمثاله بالباليديوم Palladium وهو محفوظ في معبد فستا، وكان هذا تمثالاً خشبياً قديماً مقدساً يمثل امرأة مسلحة برمح وترس وكان هذا التمثال من الكنوز المقدسة لدى الرومان ويعتقدون أنه سقط من السماء في طروادة ثم جلبه اينياس Aencas إلى روما، وكان حظ المدينة أي روما يعتمد على بقاء هذا التمثال. ولكن اقتراح الإمبراطور بنقل هذا التمثال لإجراء عملية الزواج بين هذا التمثال والإله السوري المهاجر كان سبباً في الهياج ومهدداً للانسجام والازدهار الروماني.

وبعد ذلك أحدث الإمبراطور هزة أخرى دينية في ورما. فقد أعلن عن عزمه الزواج من إحدى عذراوات فستا وهن فتيات قد نذرن أنفسهن للعفة والطهارة وعدم الزواج. فكتب الإمبراطور كتاباً إلى مجلس الشيوخ يخبرهم أن زواج الكاهن الأعظم لمعبد ايلاجابال من إحدى عذراوات فستا سوف يكون سبباً في إنجاب طفل يقرب من الآلهة في صفاته. ولكنه فضح حوافزه الحقيقية عندما

قال إنه يحب تلك الفتاة العذراء، وإن وجود هذه العاطفة النادرة من الحب جعلته يتجاوز الحدود ويتجرأ على محاولة تدنيس طهارة تلك الفتاة البريئة الطاهرة من معبد فستا. ويقول ديو عند وصفه لتلك الحادثة: «كان من الواجب جلد الإمبراطور بالسياط أو إعدامه بسبب إظهاره تلك الميول» وقد ثار عليه الرأي العام الروماني مما سبب نبذه لتلك الفكرة وذهبت الفتاة اكويلا في حال سبيلها.

ولكن جدته وجدت له زوجة أخرى لتحل محل تلك الفتاة العذراء وهي أرملة أحد أعضاء مجلس الشيوخ الذي أُعدم بعد سقوط ماكرينوس. وكان هذا الزواج زواج مصلحة قَصَدَ منه التقرب إلى مجموعة قوية في مجلس الشيوخ. ولكن ذلك الزواج فشل أيضاً بعد بضعة أشهر وأجهضت محاولات كثيرة من هذا النوع. وأخيراً وضع الإمبراطور حداً لتلك المحاولات بجلبه اكويلا وهي عذراء فستا التي أحبها، فقد أتت هذه إلى القصر ولم تثر أي ضجة في الرأي العام ما دام أن فرارها في المرة الأولى قد أفقدها صفة «عذراء فستا».

أما جدته ماسيا فقد كانت تراقب سلوكه باهتمام. فقد ظلت طوال حياتها الماضية في الظل بينما تمتعت أختها جوليا بالقوة والشهرة، ولكن فجأة جاء دورها لاستعمال مواهبها، وقد استجابت للوضع الجديد بنجاح، وأدَّت دورها بمهارة بحيث أعادت سلطة الأسرة وحكم حفيدها كإمبراطور. وقد أصبح عمرها الآن فوق الخمسين وأصبحت على حافة الشيخوخة، وحان لها أن تحصد نتيجة ما جنت يداها. فقد كان مركزها لا يدل على السمو الاجتماعي فحسب وهي تتقبل تحيات الجميع واحترامهم كأوغسطا فحسب، بل كانت تتمتع بالنفوذ السياسي الحقيقي في الدولة، وكانت أول امرأة في التاريخ الروماني تدخل مجلس الشيوخ لتشارك في المناقشات. وقد اعتمد حفيدها عليها في حكم الدولة كما اعتمد كاراكلا على أختها جوليا، بل كانت مسؤولياتها أضخم لأن ذلك الطفل كان عاجزاً عن حمل مسؤولياته كإمبراطور.

ومع ذلك فإن عجز حفيدها قد أزعجها لاسيما اندماجه بتلك النزوات وعدم شعوره بالمسؤولية، لم تكن ماسيا لتعلم ما هي الحماقات الجديدة التي سوف يقوم بها حفيدها. ومع ذلك فقد كانت نزواته هذه تحببه إلى عامة الشعب، بغض النظر عن انتقادات وهزء أعضاء مجلس الشيوخ. وهكذا اكتسب الإمبراطور حب وعطف الرأي العام ولاسيما عطف الجيش. فالحرس البريتوري كان يحترمه بصفته ابن كاراكلا. وقد أُعجبوا بشجاعته التي أظهرها في معركة أنطاكية. ولكن الإمبراطور (عكس والده) لم يكن ليهتم بالجيش وقد أمر بعدم ذكر أي معارك حربية في النصب المنقوش الذي أقيم تكريماً له قائلاً: «لا أحتاج أن ألقب بألقاب الحرب وسفك الدماء. يكفي أن تكتبوا أنني كنت أخاف الله وأحب جلب الفأل الحسن».

ولكن الجيش كان يعيب عليه تعيين أصدقائه المدللين في مراكز حساسة مريحة في الجيش، ولم يكن هؤلاء الأصدقاء مثل كومازون الرجل العسكري

الذي ربح معركة أنطاكية والذي قبل الجنود تعيينه على رأس الحرس البريتوري دون امتعاض أو شكوى، بل كان هؤلاء الأصدقاء المدللون خالين من المؤهلات العسكرية أو الإدارية، فهم يشتملون على سائقي عربات السباق وعلى الرياضيين وكان أحدهم حلاقاً والآخر طباخاً وسائق بغال وحداد وكلهم من أصول وضيعة.

وقد سببت تلك التصرفات الغضب المكتوم وعدم الرضا. فقد أساء الجنود أن يُجبَرُوا على السمع والطاعة لضباط لم ينالوا شيئاً من التدريب وليس لديهم أي مؤهلات عسكرية. زد على ذلك أن هؤلاء المدللين كانوا يقبضون رواتب أعلى من أي ضابط في الجيش ولحسن حظ الإمبراطورية فقد اقتصر التمرد على حامية روما فقط. كان هؤلاء الطفيليون الملتصقون بالإمبراطور لا يرغبون في الخدمة خارج روما وهكذا بقيت الحاميات في الولايات البعيدة سالمة منهم.

وعندما طلبت ماسيا من حفيدها تطهير بيته من هؤلاء الطفيليين رفض ذلك وعندما أصرت أظهر غضبه. وعندها تذكرت ما حدث لجانيس فسكتت على مضض وأخذت توجه انتباهها إلى اليكسيانوس Alexianus حفيدها المطيع الذي أصبح شاباً دمثاً في هذا الوقت، وكانت أمه مامايا مطيعة لماسيا وتشبهها في أخلاقها وجَلَدِها. وكانت تهتم بالأمور السياسية والأفكار الدينية وكانت جديرة بالعمل في الشؤون السياسية أكثر من أختها سهيمة التي كانت لا تهتم إلا باللهو والمسرات.

وقد سرت الإشاعات أن ألكسيانوس Alexianus كان ابناً لكاراكلا أيضاً، والحقيقة أن ألكسيانوس هذا ولد عندما كان كاراكلا قد فقد قدرته الجنسية. إلا أن مامايا لم تلق بالاً لتلك الإشاعات. أما الجدة ماسيا فكانت تحاول تقديم ألكسيانوس للمجتمع وقد أصبحت صفاته الجيدة تخفي صغر سنه وأخيراً ذهبت ماسيا إلى الإمبراطور وطلبت منه تبني ابن خالته وتعيينه قيصراً وولي عهد للإمبراطورية الرومانية، ولكي تزيد في طلاوة حديثها وتجعله مقبولاً لدى الإمبراطور قالت: إن هذا العمل سوف يخفف عنك أعباء الحكم ويترك لك وقتاً لتكرس نفسك لعبادة وخدمة إلهك. وقد راق هذا الحديث للإمبراطور فقد كانت ممارسة الشؤون السياسية كابوساً بالنسبة إليه تُهَوِّش عليه وتمنعه من تنفيذ الخطط التي ترمي إلى لإعلاء شأن الإله ايلاجابال Elagabal.

أنجز الإمبراطور الاحتفال بالتبني أمام مجلس الشيوخ دون اعتراض واحتجاج ومع أن الإجراءات كانت طبقاً للعادات القديمة، إلا أنه لم يحدث في تاريخ الإمبراطورية أن يكون الإمبراطور ووريثه في هذا السن الطفولي، فالإمبراطور الحاكم في السابعة عشرة وولي عهده في الثانية عشرة من العمر. ثم بدل الإمبراطور اسم ولي عهده وجعله الاسكندر.

لقد سارت الأمور سيراً طبيعياً في أول الأمر فقد كان الإمبراطور مولعاً بابن خالته الذي وجد فيه رفيقاً طيعاً، وقد شجعتهما ماسيا على قضاء وقتهما معاً. وقد سُرَّ أهالي روما لرؤيتهما على وفاق تام ولكن كان لتلك الصداقة نتائج لم

ترض عنها ماسيا ولا مامايا. فقد أخذ الاسكندر يختلط برفاق الإمبراطور الفاسقين وعندما نقلت الامرأتان احتجاجهما للإمبراطور قال لهما إنه ما دام أصبح الأب للاسكندر، فعليه أن يثقفه ويعلمه بالشكل الذي يريده ويرغب فيه وعليه أن يثقف ابنه في الطرق التي يسير عليها العالم، وكان يعني بالعالم تلك الحلقة الخاصة التي تحيط به شخصياً.

عندها تصرفت ماسيا بحزم وأعلنت أن الاسكندر قد أهمل دراسته، فأخذته وجعلته يعيش في جناح خاص في القصر ومعه أساتذة يلاحظونه ويهتمون به وهم رجال اختارتهم من أفضل الأساتذة الموجودين، ومنهم رجل القانون الشهير ألبيان Ulpian وهو تلميذ (بابنيان) وهكذا أصبح الاسكندر في أمان وحماية تحت إشراف هذا الأستاذ، وسرعان ما تشرب آراء جدته ووالدته وأصبح يشجب ويرفض عادات رجال البلاط السخيفة، ولكنه لم ينجح في دراسته اللاتينية بل أجاد اللغة اليونانية ولم يتمتع بالأدب اللاتيني.

لقد استاء الإمبراطور من إبعاد ابن خالته عنه وكان يعلم حق العلم أن ادعاء الثقافة والتعليم ما كان إلا ذريعة لإبعاد الشاب عنه ولمنعه من إفساد أخلاقه، وأخذ يشك أن هذا سيكون سبباً في تنمية الحقد في ذهن الولد ضده. وهكذا بدأ حبه لابن خالته بالتحول إلى العداوة وخطر بباله أن القصد من التبني ليس لإراحته بل لإزاحته عن العرش، وأنه أصبح الضحية لذلك الدهاء وتلك المكائد التي ابتدعتها جدته. وكانت أمه هي خليفته الوحيدة التي يستطيع الاعتماد عليها وقد أصغت الأم لابنها وقاسمته شكوكه ومخاوفه لكنها لم تكن لا هي ولا ولدها تملك المقدرة التي كانت تملكها الجدة ماسيا والخالة مامايا.

ومع أن سهيمة كانت تحمل لقب أوغسطا مثل أمها، إلا أنه لم يكن بإمكانها دخول مجلس الشيوخ للدفاع عن حقوقها وحقوق ابنها شخصياً، فقد كان ذلك الامتياز من حق ماسيا فقط وكان هذا الامتياز ليس له سابقة في تاريخ الإمبراطورية كما ذكرنا، وذلك نظراً لقوة شخصية ماسيا. ولذلك فكر الإمبراطور بإنشاء مجلس شيخات أي مجلس شيوخ للنساء لكي يضع أمه فيه ويجعلها رئيسة ذلك المجلس. نفذ فكرته وجعل موضع المجلس على التلة الكويرينياليه، وكان كل ما يفعله هذا المجلس هو البحث في الملابس والأزياء وفنون الخياطة والتطريز والملابس التي يجب على النساء لبسها أثناء الاحتفالات الدينية في معبد جوبتر، وعن ترتيب الحظوة والأهمية بين زوجة الوزير المسؤول عن مؤن القمح في روما إذا قابلت زوجة حاكم داسيا السابق أو حاكم بريطانيا، وعن المرتبة التي تخول المرأة أن تسوقها عربة تجرها البغال أو عربة تجرها الثيران. هذه هي القضايا التي كانت سهيمة تتكلم بها بطلاقة وتعبر عن رأيها بصراحة، ولكن لم تستطع أن تتكلم عن الأخطار المحيطة بابنها وعن القوى السياسية المناهضة لسلطته.

وفي أثناء ذلك كانت ماسيا تعمل بجد ونشاط لتحويل الرأي العام ضد الإمبراطور ولمصلحة الاسكندر الذي بات يحمل لقب القيصر. وعندما زادت ماسيا من نشاطاتها هذه قرر الإمبراطور التحرك، فذهب إلى مجلس الشيوخ طالباً عزل وحجب الاسكندر من وظيفة القيصر وإلغاء تبنيه له. ولكن مجلس الشيوخ أصغى له بسكون وعبوس ولم يرتفع صوت لإقرار الاقتراح المعروض. لم يكن الإمبراطور متأكداً من ولاء الحرس البريتوري لذلك لم يستطع إجبار مجلس الشيوخ على الرضوخ لمشيئته.

وكان يعلم أن المكيدة ضده كانت تحاك في مخيمات الجيش وفي مجلس الشيوخ تدعمها أموال الخزينة التي كانت جدته تسيطر عليها. وعندما أسقط في يده رجع إلى القصر وأخذ ينتقم من أساتذة الاسكندر ونفى أولبيان Ulpian وعندما سمع أن كومازون من حزب جدته ماسيا عزله من وظيفته كعريف لمدينة روما، وبذلك قطع آخر علاقاته مع تلك الأيام القديمة أيام الأمل والعز في حمص ومع ذلك فقد كانت ماسيا هي المنتصرة. إذ إنها أسفت لخسارتها (اولبيان) إلا أن الأساتذة الذي تستطيع تكليفهم تدريس الاسكندر كثيرون، وكان كل همها أن تترك الإمبراطور وقد فقد عطف الجمهور من رفض مجلس الشيوخ لاقتراحه وكانت تستطيع أن تصر على رفع الاسكندر إلى منصب الإمبراطور لأن مجرد لقب القيصر يضفي عليه طابعاً من السلطة.

وحالما اتسع الخرق في الأسرة ولم يعد هنالك أي أمل بالمصالحة، تحول شعور الإمبراطور بالنسبة لابن خالته إلى كراهية سوداء. فعمل على تقديم الرشاوى لبعض الخدم في الجناح الذي يسكن فيه الاسكندر لكي يقوموا بدس السم له في طعامه أو قتله وهو في الحمام، وذلك لأنه شعر أن حياته في خطر ما دام الاسكندر موجوداً. وفي أثناء ذلك توجه إلى بعض الضواحي في روما حيث كان هنالك بساتين وحدائق للإمبراطور دون إعلام أي إنسان، حتى والدته، وأخذ ينتظر الأحداث.

وعند رجوعه إلى روما أرسل أمراً إلى الحرس البريتوري بإسقاط جميع تماثيل الاسكندر وطمس اسمه من جميع النقوش والمخطوطات بالوحل على الأقل، وكان يأمل أن يكون الاسكندر قد قضي عليه ومات وأن الحرس البريتوري سوف يخشاه عندما تصلهم تلك الأخبار. ولكن خطة القضاء على الاسكندر فشلت بسبب تيقظ ماسيا وحذرها. وأما الحرس البريتوري فقد رفضوا تنفيذ أوامر الإمبراطور وأبدوا غضبهم وقَدِمَ بعضهم لحماية الاسكندر والبعض الآخر لمواجهة الإمبراطور في مكان إقامته.

وجدوا الإمبراطور يسوق عربة سباق ترافقه مجموعة من العربات حول حلبة السباق. وكان ينتظر بشغف أنباء موت ابن خالته. وقد ظن لأول وهلة عند رؤيته الجنود أنهم قد أتوا لإخباره أن أوامره قد نفذت حرفياً. ولكن سيوفهم المسلولة وأصواتهم المهددة كانت خير دليل على نيتهم وقصدهم. فتأكد أن خطته

قد أُجهضت، عندها حث الخيول على الإسراع في السير وفر هارباً إلى المعبد حيث اختبأ في غرفة صغيرة استعملها كمقصورة للنوم، وقد كانت هنالك ستارة مسدلة خلف الباب وهكذا اختفى وكمن خلف تلك الستارة.

تقدم الجنود مسرعين خلفه ولم يستطع خدم المعبد منعهم. فاندفعوا إلى الغرفة الصغيرة فوجدوه في مخبئه وسحبوه إلى الخارج. وكانوا على وشك قتله لولا تدخل عريف الحرس البريتوري انطيوخيانوس Antiochianus الذي وبخهم بشدة وعنف، وذَكَّرهم بيمين الولاء للإمبراطور الذي أخذوه على أنفسهم. ومع ذلك لم يهدؤوا وكانت حياة عريف الحرس في خطر أيضاً لولا أن حضر فجأة رسول من الكتيبة التي أرسلها إلى القصر يقول إن الاسكندر بخير وإنه لم يحدث له أي ضرر، وهو قادم مع والدته وجدته تحت الحراسة المشددة للالتجاء إلى مخيمات الجيش حتى يصبح بعيداً عن الخطر.

وعندها استعاد الإمبراطور رباطة جأشه، فلم يكن الجبن صفة من صفاته. وأعلن بكل إباء ووقار أنه سوف يرافق الجنود وأنه مستعد لمقابلة جدته وابن خالته في المخيمات وسماع شكاواهم. عندها وافق الجنود على اقتراحه وتركوه حر التصرف ولكنهم لم يحترموه فعاملوه كأسير أكثر منه إمبراطوراً. ولما كانت المخيمات واقعة خارج المدينة فقد ساروا عبر الأراضي الريفية، ولكنهم رأوا امرأة تركض في اتجاههم وعندما أمسكوها ووجدوا أنها سهيمة أم الإمبراطور التي عمدت إلى تحدي التقاليد والبروتوكول وتبعتهم مشياً على الأقدام إلى المخيمات، وقد بلغ منها الذعر مبلغه فلم تنتظر حتى يحضروا لها محفة وينقلوها عليها. ابتهجت كثيراً لرؤية ابنها على قيد الحياة وانضمت إلى المجموعة بعد أن قررت الدفاع عنه حتى الموت، ولكن دورها لم يتعد دور متفرجة عاجزة.

وفي المخيمات عمد عريف الحرس البريتوري انطيوخانيوس إلى إرجاع النظام. ولكن الجنود بدلاً من الهتاف للإمبراطور القادم طالبوا بتحقيق مطالبهم وأهمها طرد أولئك الرجال الأوغاد الذين يرافقون الإمبراطور والذين كانوا يكرهونهم. تولت ماسيا إدارة المفاوضات، ولم تكن لتهتم بعقاب تلك المحاولة التي بذلت للاعتداء على حياة الاسكندر بقدر ما اهتمت بتجنب أي تشجيع لروح التمرد والعصيان بين الجنود. الأمر الذي اعتبرته خطراً على استمرار الأسرة في الحكم. وكانت تعتقد أن عليها أن تضع حفيدها الأصغر بدل حفيدها الأكبر وذلك لمصلحة الدولة والحكم، ولكن لم يكن بها من حاجة لإيذاء الحفيد الأول والأكبر أي الإمبراطور وقد اكتفت بإعفائه من سلطاته السياسية وتركه ليعيش بالطريقة التي اختارها وهي إشغال وظيفة بلا عمل والرجوع إلى معبد ايلاجابال وممارسة واجباته الدينية هناك بشكل كاهن إمبراطوري.

أما بالنسبة للحالة الراهنة فقد سعت للوصول إلى غاية محددة وهي إزالة تلك البطانة الفاسدة التي كانت حول الإمبراطور والوزراء غير الأكفاء واستبدالهم برجال أكفاء تختارهم هي ويعملون طبق مشيئتها. وقد أخبرته أنه إذا وافق على

هذا فسوف يهدأ غضب الجنود. احتج الإمبراطور وحاول المساومة وعرض إبقاء بعض محاسبيه وصرف البعض الآخر.

ولكن عندما أشارت ماسيا إلى جموع الجنود العابسة حوله قرر أخيراً أن حياته أفضل من موته كلياً. وهكذا رجع إلى القصر ليحكم تحت إشراف أصدقاء جدته الذين كانوا أكثر كفاءة من الأصدقاء القدامى طبعاً.

وقد تفاقم شعوره بالضعة عندما لاحظ المحاولات الجادة لجلب الاسكندر تدريجياً إلى مركز السلطة، وهكذا كان ابنا الخالة مضطرين للوقوف جنباً إلى جنب في المناسبات الرسمية رغم علاقتهما المتوترة بعد محاولة الإمبراطور قتل ابن خالته. وحدث في إحدى المناسبات أن هنأه أحد أعضاء مجلس الشيوخ لتسميته مع ابنه الاسكندر بالتبني قنصلين لعام 222م، عندها أجاب الإمبراطور قائلاً: «في السنة القادمة آمل أن أكون أكثر حظاً، فأنجب ولداً يشاطرني هذا المنصب» وإذا كان يعني أن اكويليا أصبحت حاملاً، فالتاريخ لم يترك لنا خبراً يقول إنها ولدت.

وعندما أتى اليوم للاحتفال الرسمي بتنصيبه قنصلاً مع الاسكندر، رفض اصطحاب الاسكندر إلى مجلس الشيوخ لحضور ذلك الاحتفال ولكن والدته التي تذكرت المشهد السابق في المخيمات، ظلت طوال النهار تتوسل إليه حتى قبل. وقد تصرف أولاً تصرفات جافة مع الشيوخ ولكنه عاد وبدأ في مجاملاتهم كالمعتاد وصحب جدته وأوصلها إلى مقعد الشرف الذي خصص لها. ولكن سرعان ما عاد إليه الغضب فترك المجلس ولم يشترك في الموكب الذي ذهب إلى معبد جوبتر لأداء القسم وقد حل رئيس الحرس البريتوري محل الإمبراطور في أداء القسم.

وبعدها بدأ يصب جام غضبه على مجلس الشيوخ فأصدر مرسوماً بتعليق جلسات المجلس إلى أجل غير مسمى وأعلن عن منع أعضاء المجلس من الإقامة في روما. وقد حدثت حوادث طريفة عند ذاك، فقد أسرع أولئك الشيوخ الذين ليس بإمكانهم استئجار العربات إلى الحصول على بعض حيوانات النقل واندفع الكثير لاستئجار حصان أو بغل وبعضهم هربوا وهم محمولون على أكتاف الحمالين بشكل مزر.

ولدى نجاحه في تلك الإجراءات ضد مجلس الشيوخ، تشجع الإمبراطور لتجديد مساعيه للتخلص من ابن خالته الاسكندر وكان يفتعل الحوادث للظهور لوحده في المناسبات الرسمية عندما يكون من الواجب حضورهما معاً، وعندما كان يُسأل عن سبب غياب الاسكندر، كان يقول: «إن الولد مريض». ويلمح أن المرض خطير مميت ولكن كان لهذه المساعي نتائج عكسية، فقد سرت الإشاعات بين الحرس البريتوري أن الاسكندر قد مات مسموماً. وعندها أظهر جنود الحرس البريتوري غضبهم بالامتناع عن أداء واجباتهم والإضراب عن خدمة الإمبراطور حتى يظهر لهم الاسكندر حياً يرزق، وهكذا قرر الإمبراطور إجابة طلب الجنود

نظراً لتجاربه الماضية معهم، فاصطحب الاسكندر معه وركبا معاً في محفة نقلتهما إلى المخيمات حيث حيا الجنود الاسكندر وهتفوا بحياته ولكنهم لم يحيوا الإمبراطور ولم يهتموا به، وكان الجنود ينظرون بانتباه إلى المحفة ليتأكدوا من وجود الاسكندر وقد نادوه باسمه وتمنوا له الصحة والسعادة، ولم تسمع أي تحية للإمبراطور، ومع ذلك فقد استمر الركب حتى معبد جوبتر حيث وقف ابنا الخالة معاً أمام المذبح لتقديم القرابين.

قضى الإمبراطور وقتاً في التفكير باستعادة سلطانه وهيبته. فقرر أخيراً أن أفضل حل هو اللجوء إلى القوة. الأمر الذي سوف يجعل مؤيديه يستيقظون ويهبون لمساعدته. فأمر رئيس الحرس البريتوري انطيوخانوس باعتقال جميع المشاغبين في الحرس والذين حيوا الاسكندر ولم يحيوه ووضعهم في السجن. وعندما علم بقية الحرس بما حدث هاجموا السجن الذي وُضِعَ فيه رفاقهم وقتلوا رئيس الحرس انطيوخيانوس مع جميع مؤيدي الإمبراطور.

رفضت سهيمة ترك ابنها على الرغم من تعرضه للخطر فعمدت إلى جذب ولدها إلى زاوية في المعسكر ووجدت صندوقاً فارغاً أدخلت فيه ابنها ثم غطته، وأمرت الحرس بنقله باعتبار أن الصندوق يحتوي على مؤن لبعض الفرق العسكرية في معسكر آخر.

ولكن رجال الحرس البريتوري شكوا في محتويات ذلك الصندوق وظنوا أنه يحتوي بعض الكنوز والأموال فأنزلوا الصندوق وفتحوه فإذا بالإمبراطور مستلقياً فيه.

عندها هرعت الأم لتحمي ولدها من غضب الجنود وتمسكت به بشدة ولكن الجنود طعنوا الابن والأم طعنات أجهزت عليهما ثم جروا جسديهما وسحبوهما عبر شوارع روما. أخيراً تركوا جثة الأم في الشارع ورموا جثة الإمبراطور في إحدى المجاري العامة التي تصب في النهر، وهكذا انتهى حكم الإمبراطور. مات في 13 آذار عام 222م قبل بلوغه الثامنة عشرة بقليل.

تبع مقتل الإمبراطور مذبحة قتل فيها كثير من أصدقائه. ولقد سُرَّ أهالي روما لتخلصهم من هذا الإمبراطور وأنشد الشعراء قصائد الشكر والامتنان لتخلصهم من ذلك الكابوس المخيف. وقد نظم الشاعر إيليان قصيدة يذم بها الإمبراطور ويشجب أعماله وسماه «الرجل المخنث» وقد قرأ تلك القصيدة للفيلسوف فيلوستراتوس فقال هذا له بعد سماعه القصيدة: «كنت سأتمتع بقصيدتك أكثر من الآن لو أنك نشرتها في الوقت الذي كان الإمبراطور فيه حياً يرزق».